سيرة ابن سيّد النّاس في كتابات الذهبي

د/سامي بن غازي العنزي

كلية التربية والآداب – جامعة الحدود الشمالية

1439/2018

مقدّمة

من خلال قراءة الباحث في كتب الإمام الذهبي، رحمه الله، عن الأعلام وجد له كتابات عن معاصريه من الأئمّة ولفت انتباهه حديثه عن ابن سيّد النّاسفقد امتدحه بما هو أهلٌ له، وعلى النقيض من ذلك عرّض بذكر بعض المآخذ عليه، بالإضافة إلى ما ذكره عنالّلقاء بينهما وسماعه من ابن سيّد النّاس، واضطراب حديثه عن تتلمذه على يد ابن سيّد النّاس، فرأى الباحث أنّه يمكن الكتابة في ذلك وعرض هذه الكتابات وطبيعتها.

وتبرز أهميّة هذا الموضوع من خلال الوقوف على محطات حياة ابن سيّد النّاس الخاصّة والعلميّة بمنظار الذهبي، وتقديمه تقييم علمي له من خلال كتاباته، ومحاولة تحديده للمرجعيّة الثقافيّة لابن سيّد النّاس، وبالتالي محاولة فهم أسلوب كتابة عالم في عالم معاصر له ومدى إنصافه له فيما كتبه، وأخيراً تُظهر العلاقة العلميّة بينهما، وطبيعة هذه العلاقة.

وأبرز ما لفت نظر الباحث في تراث الذهبي أنّه قد توقّف في أكثر مؤلّفاته عند سنة 700 هـ كسير أعلام النبلاء، وميزان الاعتدال في معرفة الرجال، والعبر في خبر من غبر، وتاريخ الإسلام، ولكنّه عاد وذيّل على بعض هذه الكتب وتحديداً تاريخ الإسلام، والعبر في خبر من غبر لاحقاً، ومن هنا كان لابن سيّد النّاس حظّ بالتعريف به فيما ألّفه الذهبي بعد سنة 700 هـ من كتب وذيول على بعض الكتب الأخرى.

وقد بدا للباحث انّه يمكن طرق كتابات الذهبي عن ابن سيّد النّاس من ثلاثة محاور، الأوّل عن تناوله لحياة ابن سيّد النّاس، والثاني عن علميّته وتكوينه العلمي، والثالث عن نقد الذهبي لابن سيّد النّاس، فعمد إلى تقسيم البحث إلى ثلاثة اقسام تتناول ذلك.

أوّلاً: حياة ابن سيّد النّاس

نسبه:

ذكر الذهبي نسب ابن سيّد النّاس كاملاً نقلاً عن أجوبته[1] للحافظ الحسامي[2]، وهو الّذي اشتُهِر بابن أيبك، وبالدمياطي أيضاً[3]، إذ ورد في الأسئلة سؤال، وهو الرابع والخمسون، عن موت والده، وشيوخه المغاربة، وبعضاً من شعره[4]. فكانت إجابته على هذا السؤال، وذكر في جنباتها نسبه كاملاً[5]. وقد ذكر الذهبي النسب كاملاً كما يلي: محمّد بن محمّد بن محمّد بن أحمد بن عبد الله بن محمّد بن يحيى بن محمّد بن محمّد بن أبي القاسم بن محمّد بن عبد الله بن عبد العزيز بن سيّد النّاس بن أبي الوليد بن منذر بن عبد الجبّار بن سليمان بن عبد العزيز بن حرب بن محمّد بن حسّان بن سعيد بن عبد الرحيم بن خالد بن يعمر بن مالك بن نهبة بن حرب بن وهب بن جلي بن أحمس بن ضبيعة بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان[6]. وهذا التسلسل من نسبه مطابق لما ورد في الأجوبة عدا نهبة الّذي أخطأ به الذهبي فقد ورد عند ابن سيّد النّاس (بهثة). كما نقل الذهبي عن أجوبة ابن سيّد النّاس أنّ هذا النسب قد رأه بخط جده إلى حرب وباقيه من كتاب الاستيعاب لابن عبد البرّ[7].

---

[1]أجوبة ابن سيّد النّاس لابن أيبك الحسامي:هي عبارة عن أسئلة في علم الحديث، عددها تسعةً وخمسين سؤالاً، وجّهها ابن أيبك لابن سيّد النّاس في سنة 731 هـ، وهي مطبوعة في كتاب. ابن سيّد النّاس، أبو الفتح محمّد بن محمّد اليعمري، ت 734 هـ: الأجوبة، تحقيق: د. محمّد الراوندي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، المغرب، 1410 هـ.

[2]الذهبي، شمس الدين محمّد بن أحمد، ت 748 هـ: ذيل تاريخ الإسلام، اعتنى به: مازن بن سالم باوزير، دار المغني للنشر والتوزيع، ص 395.

[3]ابن أيبك: هو الحافظ أحمد بن أيبك بن عبد الله الحسامي الدمياطي، شهاب الدين أبو الحسين، توفي سنة 749 هـ بالطاعون. السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، ت 911 هـ: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، 1967م، 358/1.

[4]ابن سيّد النّاس: المصدر السابق، ص 19.

[5]ابن سيّد النّاس: المصدر السابق، ص 261-262.

[6]الذهبي: المصدر السابق، ص 394.

[7]ابن سيّد النّاس: المصدر السابق، ص 262؛ الذهبي: المصدر السابق، ص 394.

ولادته:

ذكر الذهبي أنّ ولادة ابن سيّد النّاس كانت في سنة 671 هـ[8]، وهو من شبه المتفق عليه عند المؤرّخين الّذين تناولوا سيرة ابن سيّد النّاس، وقد ذكر ابن سيّد النّاس تاريخولادته في خطاب إجازته للصفدي[9]، ويبدو أنّ المؤرّخين الّذين تناولوا سيرته قد نقلوا ذلك منه بما فيهم الذهبي.

مناصبه:

ذكر عن مناصبه أنّه قد درس وخطب بظاهر القاهرة زماناً[10]، ويبدو أنّ درس هي بتشديد الراء أي أنّه قام بالتدريس، والمقصود بظاهر القاهرة أطراف القاهرة أو خارجها، ولا نعلم سبباً لعدم تسمية الذهبي لهذه الأماكن الّتي درّس أو خطب بها، ويبدو أنّه يقصد هنا على الأرجح خطابته لجامع الخندق[11]، الّذي ذكر المقريزي عنه أنّ الخندق ناحية خارج القاهرة[12]، بالإضافة إلى إمامته لمسجد الرصد وتدريسه الحديث فيه[13]، وهو مسجد في القرافة الكبرى[14]، وهي مقبرة القاهرة[15]، والمقبرة عادةً لا تكون إلّا في أطراف المدينة أو خارجها.

---

[8]الذهبي: المصدر السابق، ص 395؛ الذهبي، شمس الدين محمّد بن احمد، ت 748 هـ: المعجم المختص بالمحدّثين، تحقيق: د. محمّد الحبيب الهيلة، مكتبة الصدّيق، الطائف، الطبعة الأولى، 1408 هـ،ص 261؛ الذهبي، شمس الدين محمّد بن احمد، ت 748 هـ: تذكرة الحفّاظ، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1503/4.

[9]الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت 764: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: د. علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1418 هـ، 213/5-214.

[10]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 396.

[11]الجزري، شمس الدين محمّد بن إبراهيم القرشي، ت 738 هـ: تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيّات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري، تحقيق: أ.د. عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصريّة بيروت، الطبعة الأولى، 1419 هـ، 722/2.

[12]المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزيّة، تحقيق: د. محمّد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1998 م،343/3.

[13]ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، ت 852 هـ: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، 1414 هـ، 210/4.

[14]المقريزي: المصدر السابق، 650/3.

[15]المقريزي: المصدر السابق، 644/3-649.

كما ذكر عن مناصبه أنّه قد ولي مشيخة الظاهريّة بعد ابن الدمياطي[16]، وقد ذكرت المصادر أنّ ابن سيّد النّاس قد مات وهو خطيب لهذه المدرسة[17]، وهي أحد أجلّ مدارس القاهرة[18]. أمّا الدمياطي فقد مات سنة 705 هـ[19]، ولم تذكر المصادر من تولّاها بعده، ولكن حتماً لم يكن ابن سيّد النّاس لأنّ من عيّن ابن سيّد النّاس شيخاً للمدرسة الظاهريّة هو الأمير سيف الدين أرغون الدوادار[20]، والّذي تولّى نيابة مصر سنة 712 هـ[21]. أمّا متى تولّى ابن سيّد النّاس مشيخة الظاهريّة فهو قبل سنة 726 هـ، وهي السنة الّتي عُزِل فيها أرغون الدوادار[22]، وقد ذكر السبكي في طبقات الشافعيّة أنّ والده، علي بن عبد الكافي السبكي[23]، قد ولي مشيختها قبل ابن سيّد النّاس[24]. ويظهر أنّ الذهبي بذكره لابن سيّد النّاس بعد الدمياطي في تولّي مشيخة الظاهريّة قد قصد من تولّاها من حيث الشهرة، أي أنّ من بينهما لم يكونوا مشهورين كشهرة الدمياطي وابن سيّد النّاس.

خطّه:

اشتُهِر ابن سيّد النّاس بجمال خطّه واتقانه للكتابة بالخطّ المشرقي والمغربي، وقد تناول ذلك الذهبي باقتضاب فقد ذكر أنّه قد اشتُهِر ببراعة الخط[25]، كما وصف خطّه بالمليح، وذكر أنّه كتب فيه كثيراً[26]، دون أن يبيّن ماذا كتب؟. كما وصف خطّه في موضع آخر بالمنسوب

[16]الذهبي: المصدر السابق، ص 396.
[17]السبكي، تاج الدين عبد الوهّاب بن علي بن عبد الكافي، ت 771 هـ: طبقات الشافعيّة الكبرى، تحقيق: محمود محمّد الطناحي وعبد الفتّاح محمّد الحلو، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، 270/9.
[18]المقريزي: المصدر السابق، 479/3.
[19]الكتبي، محمّد بن شاكر، ت 764 هـ: فوات الوفيّات والذيل عليها، تحقيق: د. إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 410/2.
[20]الصفدي: المصدر السابق، 208/4.
[21]ابن حجر: المصدر السابق، 351/1.
[22]ابن حجر: المصدر السابق، 351-352.
[23]علي بن عبد الكافي السبكي: شيخ الإسلام، الإمام، العلّامة، المحدّث، صنّف أكثر من مائة وخمسين مصنّفاً، ولي القضاء في الشام، ثمّ عُيّن على دار الحديث الأشرفيّة، مات بمصر سنة 956 هـ. السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت 911 هـ: طبقات الحفّاظ، راجعه: لجنة من العلماء، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، 1403 هـ، ص 525-526.
[24]السبكي: المصدر السابق، 270/9.
[25]الذهبي: ذيول العبر في خبر من غبر، 99/4.
[26]الذهبي: المعجم المختصّ بالمحدّثين، ص 261.

قائلاً: (وكتب بخطّه المنسوب كثيراً)[27]، ومعنى ذلك أنّ الخطّ منسوب إليه دون أن يتأكّد من نسبته إليه، وهو تناقض غريب من الذهبي ففي مواضع يذكر عنه جمال الخطّ وملاحته، وفي موضع يذكر أنّ الخطّ منسوب إليه.

وفاته:

ووفاة ابن سيّد النّاس محدّدة عند جميع المؤرّخين بسنة 734 هـ، وقد ذكرها الذهبي في عدد من كتبه فقد ذكر أنّه توفّي فجأة في الحادي عشر من شعبان سنة أربع وثلاثين وسبع مائة في تذكرة الحفّاظ[28]، وفي تذييله على تاريخ الإسلام[29]، وفي معجمه المختصّ بالمحدّثين[30]. أمّا في البقيّة، وهي: دول الإسلام[31]، والإعلام بوفيّات الأعلام[32]، وذيول العبر في خبر من غبر[33] فقد ذكر فيها، في سرده لأحداث سنة 734 هـ، وفاة ابن سيّد النّاس. كما ذكر أنّه دُفِن بالقرافة[34]، وهي مقبرة أهل القاهرة[35]. كما ذكر أنّه قد شيّعه الخلق[36] كناية عن كثرة من شيّعه، وهو أمر ثابت ذكره

[27]الذهبي: تذكرة الحفّاظ، 1503/4.
[28]الذهبي: المصدر السابق، 1503/4.
[29]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 397.
[30]الذهبي: المعجم المختصّ بالمحدّثين، ص 261.
[31]الذهبي، شمس الدين محمّد بن احمد، ت 748 هـ: دول الإسلام، تحقيق: حسن مروة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1999 م، 277/2.
[32]الذهبي، شمس الدين محمّد بن أحمد: الإعلام بوفيّات الأعلام، تحقيق: مصطفى بن علي عوض وربيع أبو بكر عبد الباقي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، 1413 هـ، 505/1.
[33]الذهبي: ذيول العبر في خبر من غبر، 99/4.
[34]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، 397.
[35]المقريزي: المصدر السابق، 644/3-649.
[36]الذهبي: المصدر السابق، 398.

ثانياً: تكوين ابن سيّد النّاسوعلميّته

شيوخه:

وقد ذكر الذهبي الكثير من المعلومات عن شيوخ ابن سيّد النّاس، وأين تلقّى العلم منهم، فقد نُقِل عنه أنّه ذكر أنّ شيوخ ابن سيّد النّاس كانوا يقاربون الألف، ولم يعثر الباحث على هذه المعلومة في تراث الذهبي المطبوع، ولكن ذكرها الصفدي[37]، وهو معاصر لابن سيّد النّاس، والذهبي، وتوفّي بعدهما في سنة 764 هـ، كما نقلها عنه ابن شاكر الكتبي[38]، وغيرهما. وما يودّ الباحث الإشارة إليه هو أنّ الذهبي ربّما يكون قد ذكر هذا العدد الكبير من باب الكناية عن كثرة شيوخ ابن سيّد النّاس لأنّ العدد كبير ولا يمكن القطع به إلّا بذكر أسماء هؤلاء الشيوخ، وعند وقوف الباحث على المصادر الّتي تناولت سيرة ابن سيّد النّاس كصديقه الصفدي، وابن شاكر الكتبي، والفاسي، وابن قاضي شهبة، وابن حجر العسقلاني، وابن العماد الحنبلي، وغيرهم لا نجد أنّهم قد ذكروا كثيراً من شيوخه، وعند إحصائيّة الباحث للعدد في هذه المصادر فإنّ أكثر من عدّد شيوخ ابن سيّد النّاس هو الفاسي في كتابه: ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد الّذي ذكر فيه عدداً منهم لا يتجاوز الخمسين، امّا البقيّة فيذكرون عدداً قليلاً منهم وهم المشهورون، وقد سار الذهبي على نهج هؤلاء بذكر عدد قليل منهم وهم الأشهر في زمانه. وبالمناسبة فقد ذكر الجزري، المتوفّى سنة 738 هـ، نقلاً عنالبرزالي، المتوفّى سنة 739 هـ، أنّه ذكر أنّ لابن سيّد النّاس نحو مائة شيخ ولم يذكر أسماؤهم[39]، ولا نعلم هل قصد أنّ عدد شيوخه كانوا مائة أو أنّه يعرف منهم مائة، والأرجح أنّه يقصد أنّ عددهم مائة وهو خطأ لأنّ ابن سيّد النّاس نفسه ذكر أنّه قد قابل في الإسكندريّة وحدها زهاء مائة شيخ[40] فما بالك ببقيّة الأقاليم.

---

[37]الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت 764 هـ: الوافي بالوفيّات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي للطبع والنشر والتوزيع، 288/3.
[38]الكتبي: المصدر السابق، 288/3.
[39]الجزري: المصدر السابق، 721/2.
[40]ابن سيّد النّاس: المصدر السابق، ص 207.

وقبل أن يعرض الباحث لشيوخ ابن سيّد النّاس الّذين ذكرهم الذهبي يودّ الإشارة إلى أنّه قد ذكر شيوخاً لابن سيّد النّاس وهو صغير ماتوا قبل أن يبلغ الحلم، وسيحاول الباحث تقسيم شيوخ ابن سيّد النّاس إلى قسمين:

الأوّل: شيوخ سمع منهم مع والده: وهؤلاء سمع منهم وماتوا قبل أن يبلغ الحلم، وهم الّذين سمع منهم وهو طفل ولم يتجاوز الرابعة عشر من عمره، ويستدلّ من حضوره وسماعه عند هؤلاء حرص أسرته على تنشئته منذ ولادته تنشئة علميّة صحيحة، وهم:

- النجيب الحرّاني[41]: المتوفّى سنة 672 هـ[42]، أي بعد ولادته بسنة، وقد أحضره والده عند هذا الشيخ وهو لم يتمّ عامه الأوّل، وأجازه، وكنّاه بأبي الفتح[43].
- الإمام شمس الدين محمّد بن العماد الحنبلي[44]: المتوفّى سنة 676 هـ[45]، وقد أحضره والده عنده وهو ابن أربع سنين في سنة 675 هـ[46].
- ابن الأنماطي[47]: وهو محمّد بن إسماعيل بن الأنماطي المصري[48]، المتوفّى سنة 684 هـ[49]. وقد اشتُهِر ابن الأنماطي بسماعه لصحيحي البخاري، ومسلم، ولمسند عبد بن حُميد[50].

---

[41]الذهبي: المصدر السابق، ص 395.
[42]ابن العماد الحنبلي: شهاب الدين عبد الحيّ بن أحمد الدمشقي، ت 1089 هـ: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 1406 هـ، 586/7-587.
[43]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 395.
[44]الذهبي: المصدر السابق، ص 395.
[45]الصفدي: الوافي بالوفيّات، 10/2.
[46]ابن حجر: المصدر السابق، 208/4.
[47]الذهبي: المصدر السابق، ص 395؛ الذهبي: ذيول العبر في خبر من غبر، 99/4.
[48]ابن حجر: المصدر السابق، 208/4.
[49]ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق،678/7.
[50]الفاسي، محمّد بن أحمد الحسني المكّي، ت 832 هـ: ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، تحقيق: محمّد صالح المراد، معهد البحوث العلميّة وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكّة المكرّمة، 172/1-173.

- العزّ الحرّاني[51]: واسمه عبد العزيز بن عبد المنعم الحرّاني[52]، المتوفّى سنة 686 هـ[53]، وقد ذكر ابن سيّد النّاس فيما نقله عنه الصفدي أنّه سمع منه وهو ابن خمس سنين سنة 676هـ[54].

الثاني: شيوخ سمع منهم منفرداً:وتمثّل هذه الفترة بداية ابن سيّد النّاس الحقيقيّة في طلب العلم الشرعي، واستهلّها بالسماع من القسطلاني:

- قطب الدين ابن القسطلاني[55]:واسمه قطب الدين أبو بكر محمّد بن أحمد القسطلاني الصوفي، المتوفّى سنة 686 هـ[56]، وقد مثّل القسطلاني بداية ابن سيّد النّاس في طلب العلم بنفسه فقد كتب الحديث بخطّه عنه، وقرأه بلفظه عليه وهو في الرابعة عشرة من عمره في سنة 685 هـ[57].
- خطيب المزّة[58]: وقد اشتُهِر بابن خطيب المزّة ولكن ذكره الذهبي في شيوخ ابن سيّد النّاس خطيب المزّة، وفي الوقت ذاته عرّف به في وفيّات سنة 687 هـ بابن خطيب المزّة، وهو عبد الرحيم بن يوسف الموصلي الدمشقي، وعدّه من الثقات[59].
- غازي الحلاوي[60]: وقد عرّف به الذهبي بأبي الهيجاء غازي بن أبي الفضل الحلاوي، ووصفه بأنّه بلغ المنتهى في الإسناد، ولم يكن يجاريه فيه أحد، توفّي سنة 690 هـ[61].

---

[51]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 395؛ الذهبي: ذيول العبر في خبر من غبر، 99/4؛ الذهبي: المعجم المختص بالمحدّثين، ص 261؛ الذهبي: تذكرة الحفّاظ، 1503/4.
[52]الفاسي: المصدر السابق، 46/3.
[53]ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، 692/7.
[54]الصفدي: المصدر السابق، 232/1.
[55]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 395.
[56]ابن سيّد النّاس: المصدر السابق، ص 166-168.
[57]الصفدي: المصدر السابق، 202/1.
[58]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 395.
[59]الذهبي: العبر في خبر من غبر، 364/3.
[60]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 395؛ الذهبي: ذيول العبر في خبر من غبر، 99/4؛ الذهبي: المعجم المختص بالمحدّثين، ص 261؛ الذهبي: تذكرة الحفّاظ، 1503/4.
[61]الذهبي: العبر في خبر من غبر، 374/3.

- محمّد بن مؤمن[62]: وهو محمّد بن عبد المؤمن الصوري، وقد أخذ عن جماعة كبيرة من علماء بغداد، توفّي سنة 690 هـ[63].
- ابن المجاور[64]:وهو يوسف بن يعقوب الشيباني، ولم يُعرف عنه سوى روايته لتاريخ بغداد للبغدادي، توفّي سنة 690 هـ[65].
- الواسطي[66]: وهو إبراهيم بن علي بن أحمد الواسطي، وصفه ابن العماد الحنبلي بشيخ الإسلام[67]، ووصفه الذهبي بمُسند الوقت، وذكر أنّه توفّي سنة 692 هـ[68].
- نجم الدين ابن حمدان[69]: واسمه أحمد بن حمدان الحرّاني الحنبلي، وهو نزيل القاهرة، وقد سمع بأماكن عدّة منها حلب، ودمشق، والقدس، له تصانيف عدّة كالرعاية الكبرى، والرعاية الصغرى، وغيرها، وتوفّي سنة 695 هـ[70].
- الشهاب اللأبرقوهي[71]: وهو أبو المعالي أحمد بن إسحاق الأبرقوهي، وفي الاسم خطأ إذ كُتِب بلامين، ويبدو أنّه خطأ إملائي إذ عرّف به في موضع آخر بالأبرقوهي، توفّي سنة 701 هـ[72]. وقد اشتُهِر بسماعه للسيرة النبويّة لابن إسحاق بتهذيب ابن هشام[73].

---

[62]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 395؛ الذهبي: المعجم المختص بالمحدّثين، ص 261؛ الذهبي: تذكرة الحفّاظ، 1503/4.
[63]ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، 728/7.
[64]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 395؛ الذهبي: المعجم المختص بالمحدّثين، ص 261؛ الذهبي: تذكرة الحفّاظ، 1503/4.
[65]الذهبي: العبر في خبر من غبر، 375/3؛ الفاسي: المصدر السابق، 354.
[66]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 395؛ الذهبي: المعجم المختص بالمحدّثين، ص 261؛ الذهبي: تذكرة الحفّاظ، 1503/4.
[67]ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، 733/7.
[68]الذهبي: العبر في خبر من غبر، 378/3.
[69]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 395.
[70]ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، 748/7-749.
[71]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 395.
[72]الذهبي: العبر في خبر من غبر، 5/4.
[73]الفاسي: المصدر السابق، 419/1.

- أبيه[74]: وهو محمّد بن محمّد بن أحمد بن سيّد النّاس، المتوفّى سنة 705 هـ[75]، ولا ريب أنّ لوالده أثر كبير في تعليمه وتنشئته علميّاً، وقد أشار الباحث إلى ذلك في ذكر الشيوخ الّذين سمع منهم أبو الفتح مع أبيه أعلاه.

ويلفت نظر الباحث أنّ الذهبي قد أهمل قائمة ابن سيّد النّاس في أحفظ من لقي، وهي قائمة أعدّها في أثناء الإجابة عن أحد أسئلة ابن أيبك عن أحفظ من لقي، وقد ذكر في القائمة ستة عشر شيخاً جعل ترتيبهم بحسب الأقوى حفظاً ثمّ الأقل وهكذا[76]، ولم يذكر الذهبي من هؤلاء إلّا القطب القسطلاني، كما أشرنا أعلاه، وهو أحفظ القائمة بحسب تصنيف ابن سيّد النّاس إذ وضعه أوّلاً فيها[77].

كما تجاهل الذهبي ذكر الكثير من شيوخ ابن سيّد النّاس الكبار الّذين لا يمكن تجاهلهم بسبب مكانتهم كشيخ الإسلام ابن دقيق العيد، والدمياطي، وابن تيمية، والمزّي، وغيرهم.

كما ذكر الذهبي أنّ ابن سيّد النّاس قد سمع في الثغر، والحرمين[78]، ودمشق[79]، وقد قصد بالثغر مدينة الإسكندريّة، لأنّ العرب كانت تطلق على المدن الساحليّة الثغور، وقد زار ابن سيّد النّاس الإسكندريّة ثلاث مرّات كما ذكر[80]. أمّا دمشق فلم يزرها إلّا مرّة واحدة في سنة 690 هـ وكان يريد لقاء الفخر البخاري[81]، ولكنّه فاته بليلتين، وسمع من كبار الشيوخ الآخرين فيها[82]. أمّا حجّ ابن سيّد النّاس فلم تذكر المصادر معلومات عنه ولا نجد له إشارة

[74]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 395.
[75]الذهبي: المعجم المختص بالمحدثين، ص 255.
[76]ابن سيّد النّاس: المصدر السابق، ص 166-224.
[77]ابن سيّد النّاس: المصدر السابق، ص 166-169.
[78]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 395-396.
[79]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 395.
[80]ابن سيّد النّاس: المصدر السابق، ص 208.
[81]الفخر البخاري: مسند الدنيا، أبو الحسن علي بن أحمد الصالحي الحنبلي، رحل الطلبة إليه من مختلف البلاد، توفّي سنة 690 هـ. الذهبي: العبر في خبر من غبر، 373/3.
[82]ابن كثير: البداية والنهاية، 262/16.

إلّا ما ذكره الصفدي أنّ رجلاً اسمه القبتوري توفّي في أوائل سنة 704 هـ قد أنشد ابن سيّد النّاس في المدينة[83]، وهو ما يعني أنّ حجّه كان في سنة 703 هـ على الأغلب.

أمّهات الكتب الّتي اقتناها:

وقد نقل الكتبي عن الذهبي أنّه كان لديه كتب كبار، وأمّهات جيّدة، وذكر منها: مصنّف ابن أبي شيبة، ومسنده، والمحلّى، والتمهيد، وجامع عبد الرزّاق، وتاريخ أبي خيثمة، والاستيعاب، والاستذكار، وتاريخ الخطيب البغدادي، والمعاجم الثلاثة للطبراني، وطبقات ابن سعد، وتاريخ المظفري، وغير ذلك[84]، وإذا ما نظرنا إلى هذه الكتب نجد أنّها قد تركّزت في الحديث والتاريخ، كما أنّ هذه الكتب، في غالبها، من بين الكتب الإسلاميّة الشهيرة الّتي يحرص كلّ عالم الاطّلاع عليها.

مؤلّفاته:

وقد وصف الذهبي ابن سيّد النّاس بصاحب التصانيف[85]، كما نعته بأنّه جمع وألّف[86]. وذكر من أعماله كتاب عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ولكن لم يذكره باسمه وإنّما أشار إليه بقوله: (وعمل سيرة نبويّة في سفرين)[87]، ولا نعلم سبباً لعدم ذكر الذهبي للكتاب باسمه الدارج والمعروف بين النّاس مع أنّه مشهور ويعدّ من بين أفضل الكتب الّتي كُتِبت في السيرة النبويّة على الإطلاق.

كما أشار إلى كتاب النفح الشذي في شرح جامع الترمذي، ولم يذكره باسمه وإنّما قال عنه: (وشرح كثيراً من الترمذي، ولو كمل ذلك كان من أنفس الأمّهات)[88]، وهو يقصد أنّه لم يتمّ الكتاب فقد كتب منه جزأين وتصدّى لبقيته أبو الفضل العراقي، ولكنّه لم يتمّه، ثمّ كتب السخاوي تكملته في مجلّدين، والكتاب مطبوع، وقد اطّلع الباحث على مجلّدي ابن سيّد النّاس المطبوعة في أربعة أجزاء، وفيها شرح للمجلّد الأوّل من جامع الترمذي الّذي يتكوّن من ستّة

[83] الصفدي: أعيان العصر واعوان النصر، 2/322-324.
[84] الكتبي: المصدر السابق، 3/288.
[85] الذهبي: تذكرة الحفّاظ، 4/1503.
[86] الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 396.
[87] الذهبي: المصدر السابق، ص 396.
[88] الذهبي: المصدر السابق، ص 396.

مجلّدات، وقد غطّى باب الطهارة كاملاً، وغطّى كثيراً من أبواب الصلاة بلغ عددها 114 باباً من أصل 316 باباً. وقد ذكر الذهبي أن ابن سيّد النّاس قد شرح كثيراً من الترمذي، وهذا غير دقيق فهو لم يتمّ المجلّد الأوّل منه حتّى تحصل له الكثرة من شرح الكتاب، ولكن ربّما قصد كثرة المادّة العلميّة وغزارتها فيما شرح. كما يُفهم من كلامه أنّه سيكون للكتاب قيمة علميّة عظيمة لو أتمّه،وسيصنّف من أمّهات الكتب.

مكانته في اللّغة والشعر والأدب:

أشار الذهبي إلى مكانة ابن سيّد النّاس اللّغويّة في عدد من مؤلّفاته وامتدحه غير أنّه لم يسهب كثيراً في مدحه وكان مختصراً وكان غاية في البلاغة والوضوح، فقد قال عنه: (وتقدّم في الأدب والبلاغة، وأجاد النظم والنثر، وتفقّه، وجوّد العربيّة)[89]، ولا شكّ أنّ هذه العبارة المختصرة تبيّن حال ابن سيّد النّاس مع اللّغة والشعر والأدب، فيُفهم منها أنّه قد بلغ شأواً عظيماً في الأدب والبلاغة ممّا جعله يجيد نظم الشعر والكتابات النثريّة والأدبيّة، ثمّ عقّب على ذلك بتفقّهه في اللّغة العربيّة، وقد يخطر ببال القارئ للعبارة أنّه قصد علم الفقه الشرعي بعبارة تفقّهه في اللّغة ولكن هذا مستبعد تماماً لأنّه أورد الكلمة في سياق حديثه عن لغويّة ابن سيّد النّاس فهو يقصد فقه اللّغة أو خصائص اللّغة وهي عبارة عن علوم لغويّة مختلفة منها أصل اللّغة ولهجاتها وفصاحتها ومعاني الأدوات النحويّة والتغيّرات الصوتيّة وغيرها[90]، ثمّ ختم تعليقه بأنّه جوّد العربيّة وتجويده للعربيّة يقصد به إتقان اللّغة العربيّة من جميع أوجهها وعلومها.

كما وصفه بموضع آخر بقوله: (وكان عديم النظير في مجموعه رأساً في الأدب رحمه الله)[91]، فالعبارة فيها ثناء على ابن سيّد النّاس بأنّه عديم النظير في كل العلوم الّتي اشتُهِر بها، كما أنّه بلغ الذروة في الأدب كحال الرأس في الجسد.

كما نقل الصفدي عن الذهبي قوله في ابن سيّد النّاس أنّ له يد طولى في علم اللّسان[92]، وهي كناية عن تبحّره وإتقانه لعلم اللّسان والمقصود فيه اللّسان العربي أي اللّغة العربيّة.

---

[89]الذهبي: المصدر السابق، ص 369.

[90]انظر: كتاب ابن فارس، المتوفّى سنة 395 هـ: الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسُنن العرب في كلامها.

[91]الذهبي: المصدر السابق، ص 398.

كما امتدح الذهبي شعر ابن سيّد النّاس بقوله: (وقال الشعر البديع)[93]، أي أنّ تصنيف شعر ابن سيّد النّاس كان من الشعر الجيّد. كما ذكر أنّ شعر ابن سيّد النّاس في غالبه كان في المدائح النبويّة إذ قال: (ونظم كثيراً من المدائح النبويّة)[94]، وعند الرجوع إلى تراث ابن سيّد النّاس نجد أنّ له عدد من المؤلّفاتفي المدائح النبويّة هي: المقامات العليّة في الكرامات الجليّة، ومِنَح المِدح، وبشرى اللّبيب بذكرى الحبيب.

صفاته العلميّة:

وصفه الذهبي بالحافظ الأوحد الأبرع ذو الفنون والذهن الوقّاد[95]، كما وصفه في موضع آخر بالحافظ العلّامة المتفنّن[96]، ووصفه بالشيخ العلّامة المحدّث، الحافظ الأديب البارع[97]، كما وصفه بأنّه لا تُملّ مجالسته بسبب كثرة فوائده، وحسن نوادره، وكثرة اطّلاعه، وصحّة ذهنه[98]، كما ذكر عنه أنّه أصبح ذا معارف مبهرة، وصيت ذائع[99].

كما وصفه في معجمه المختصّ بالمحدّثين بأنّه أحد أئمّة هذا الشأن[100]، وهو يقصد بالشأن علم الحديث أي أنّه من أئمّة الحديث، بالإضافة إلى وصفه بأنّه كيّس المحاضرة[101] أي ظريف وفطن وحسن الفهم والسلوك.

كما ذكر عنه أنّه قد: (خرّج، ورحل، وجمع، وصنّف)[102]، وهذه الأفعال فيها وصف لابن سيّد النّاس أنّه قد خرّج الحديث، وجمعه بالإضافة إلى جمع مادّته العلميّة، كما رحل في طلب العلم، وصنّف الكتب كنتيجة لذلك. كما ذكر في كتاب آخر أنّه: (صحّح، وعلّل،

---

[92]الصفدي: الوافي بالوفيّات، 220/1.
[93]الذهبي: المعجم المختصّ بالمحدّثين، ص 261.
[94]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 396.
[95]الذهبي: المصدر السابق، ص 394.
[96]الذهبي: العبر في خبر من غبر، 99/4.
[97]الذهبي: تذكرة الحفّاظ، 1503/3.
[98]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 396.
[99]الذهبي: المصدر السابق، ص 396.
[100]الذهبي: المعجم المختصّ بالمحدّثين، ص 261.
[101]الذهبي: المصدر السابق، ص 261.
[102]الذهبي: العبر في خبر من غبر، 99/4.

وفرّع، وأصّل)[103]، وهذه الصفات فيها دليل على أنّه لم يكن يأخذ العلم والحديث على عواهنه ولكن كان يخضعه للنقد، والتصحيح، والتعليل.

كما وصفه بأنّه قد اقتنى الكتب النفيسة[104] ذات القيمة العلميّة الكبيرة، ولكن لم يُسمِّ شيئاً من هذه الكتب وإنّما ذكرها الكتبي نقلاً عن الذهبي، كما أشرنا أعلاه[105].

هذا عن صفاته العلميّة والّتي تقترن دائماً بصفاته الخُلقيّة والّتي ذكر بعضاً منها الذهبي في أثناء ذكره لصفاته العلميّة، فقد ذكر عنه أنّه حلو النادرة[106]، كما نقل الصفدي عن الذهبي قوله فيه: (وكان طيّب الأخلاق، بسّاماً، صاحب دعابة)[107].

وفي ختام الحديث عن صفاته نجد أنّ الذهبي قد قال عنه بعد ما وصفه بكلّ هذه الصفات: (ومحاسنة جمّة)[108] أي أنّه لم يوفّيه حقّه بالوصف فله صفات ومحاسن كثيرة غير ما ذُكِر.

طلّابه:

لم يذكر الذهبي شيئاً عن طلّاب ابن سيّد النّاس أو من أخذ عنه العلم واكتفى بقوله: أخذ عنه جماعة[109] دون أن يذكر أحداً منهم.

[103] الذهبي: المعجم المختصّ بالمحدّثين، ص 261.
[104] الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 396.
[105] انظر: ص 12.
[106] الذهبي: المعجم المختصّ بالمحدّثين، ص 261.
[107] الصفدي: المصدر السابق، 220/1.
[108] الصفدي: المصدر السابق، 220/1.
[109] الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 396.

ثالثاً: ابن سيّد النّاس في ميزان الذهبي

لقاؤه بابن سيّد النّاس، وسماعه، وإجازته له:

ذكر الصفدي نقلاً عن الذهبي أنّه جالس ابن سيّد النّاس مرّات، وبات معه ليلة، وسمع بقراءته على الرضي النحوي[110]، وفي موضع آخر ذكر نقلاً عن الذهبي كذلك أنّه جالسه مرّة، وبات معه ليلة[111]. والرضي النحوي مات سنة 684 هـ[112]، وهو ما يعني أنّ ابن سيّد النّاس قد سمع منه في الثالثة عشرة من عمره أو قبل ذلك، والذهبي في الحادية عشرة أو دون ذلك، وهي فترة مبكّرة من عمرهما، وعند الرجوع لكتابات الذهبي نجد أنّه قد ذكر أنّه سمع بقراءة ابن سيّد النّاس، وجالسه مرّات، وحفظ عنه، وأجاز له ممّا قرأ بخطه[113]، ولم يذكر شيئاً عن سماعه معه للرضي النحوي، وما ذكره الذهبي، هنا، لا يمكن أن يكون من أطفال صغار في سنّ مبكّرة ولكنّه على الأغلب في سنّ متقدّمة أكثر ذلك أنّ الرضي الشاطبي النحوي لم يُعرف عنه البراعة في الحديث وإنّما اشتُهِر بالنحو واللّغة.

وقد أكّد الذهبي مجالسته لابن سيّد النّاس، وسماعه لقراءته، وإجازته لمروياّته في معجمه المختصّ بالمحدّثين[114]، غير أنّه في تذكرة الحفّاظ ذكر أنّه لم يسمع منه شيئاً[115]، وهذا تناقض غريب فمرّة يذكر أنّه سمع منه، ومرّة يذكر أنّه لم يسمع منه، ثمّ يعود ليذكره من بين شيوخه عند حديثه عن شيوخ صاحب التذكرة، كما عنون، وأورده تحت الرقم 12[116]، كما ذكر في سياق حديثه عن شيوخه، في التذكرة، أنّه سمع مع ابن سيّد النّاس[117]، ولم يذكر من سمع. ولا ريب أنّ هذا التناقض أمرٌ مستغربٌ من أحد أعلام الإسلام مثل الذهبي، لكن ما يراه الباحث ممّا ذُكِر في لغط الذهبي عن سماعه من ابن سيّد النّاس وإجازته لهأنّ السماع صحيح والإجازة صحيحة وهو ما يجعله أحد شيوخ الذهبي مع فارق العمر الطفيف بينهما وهو سنتان لصالح ابن سيّد النّاس.

---

[110] الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، 202/5.
[111] الصفدي: الوافي بالوفيّات، 220/1.
[112] ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، 679/7.
[113] الذهبي: المصدر السابق، ص 396.
[114] الذهبي: المعجم المختصّ بالمحدّثين، ص 261.
[115] الذهبي: تذكرة الحفّاظ، 1503/4.
[116] الذهبي: المصدر السابق، 1503/4.
[117] الذهبي: المصدر السابق، 1503/4.

عقيدته:

شهد الذهبي بصحّة عقيدة ابن سيّد النّاس فقد قال عنه: (وكان أثريّاً في المعتقد يحبّ الله ورسوله)[118] أي على أثر السلف في اعتقادهم، كما ذكر عنه أنّه قد لازم الشهادة مدّة[119] بمعنى أنّه درس العقيدة مدّة من الزمن.

مكانته في الحديث، والسيرة:

امتدح الذهبي مكانة ابن سيّد النّاس في الحديث كثيراً فقد قال عنه: (وهو على حاله ثبت فيما ينقله بصير بما يحرّره)[120]، فهذه العبارة يستدلّ منها أنّه لا ينقل إلّا ما هو ثابت بمعنى أنّه يهمل ولا ينظر إلى كلّ ما هو مشكوك فيه، كما أنّه دقيق فيما يحرّره ويكتبه. كما نقل الصفدي عن الذهبي تصنيفه لابن سيّد النّاس بين رجال الحديث وحالته من حيث الموثوقيّة، فقد قال: (وكان صدوقاً في الحديث)[121]، ثمّ استطرد الصفدي بذكر ما قاله الذهبي عن مكانة ابن سيّد النّاس في الحديث، فقال: (حجّة فيما ينقله، له بصر نافذ بالفنّ، وخبرة بالرجال وطبقاتهم، ومعرفة بالاختلاف)[122]، وجميع هذه الصفات لا تكون إلّا في شخص متمرّس وذا مكانة عالية في الحديث. كما ذكر الذهبي عنه أنّه قد كتب العالي والنازل[123]، والعالي والنازل هما تخصصان في علم الحديث، فالحديث العالي صاحب الإسناد الجيّد، والحديث النازل صاحب الإسناد الضعيف، وهذه الكتابة والتفريق بينهما في العالي والنازل يدلّ على براعة وتفوّق في علم الحديث. كما ذكر الذهبي عن براعته في طلب النازل من الحديث أنّه قد تنزّل في الأخذ إلى أصحاب سبط السلفي، ثمّ أصحاب الرشيد العطّار[124]، وعند النظر في ترجمة سبط السلفي والرشيد العطّار، المتوفّيان في سنتي 651 هـ[125]، 662 هـ[126] على التوالي، نجد أنّهما لم يكونا من المشهورين أو ذُكِر عنهما علم كبير فقد ذكر

[118]الذهبي: المعجم المختصّ بالمحدّثين، ص 261.
[119]الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، 205/5.
[120]الذهبي: تذكرة الحفّاظ، 1503/4.
[121]الصفدي: الوافي بالوفيّات، 220/1.
[122]الصفدي: المصدر السابق، 220/1.
[123]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 396.
[124]الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، 202/5.
[125]الذهبي: العبر في خبر من غبر، 267/3.
[126]الذهبي: المصدر السابق، 306/3.

الذهبي وابن العماد الحنبلي عن سبط ابن السلفي أنّه كان عريّاً من العلم[127]، ووصفا الرشيد العطّار أنّه قد تقدّم في الحديث[128]، دون أن يذكرا شيئاً آخراً عنهما، أمّا أصحاب السلفي والرشيد العطّار، وهم الّذين تنزّل ابن سيّد النّاس في الأخذ عنهم فلم يعثر الباحث على ذكر لهم أو تسمية لأحد منهم، ولا شكّ أنّ أخذ ابن سيّد النّاس العلم من هؤلاء مع تواضعهم العلمي فيه إشارة على حرصه على أخذ العلم من الجميع دون أن تمييز للمكانة العلميّة لأحد من العلماء حتّى وإن كان متواضعاً.

كما استطرد الذهبي في وصف تميّز ابن سيّد النّاس في الحديث بالإضافة إلى كتابته للعالي والنازل فقال عنه: (وبرع في فنّ الحديث متناً ورجالاً)[129]، ولا شكّ أنّ هذه العبارة فيها إظهار لبراعة ابن سيّد النّاس في نصوص الحديث، ورواة الحديث ورجاله.

أمّا عن مكانة ابن سيّد النّاس في السيرة النبويّة فينطبق على ذلك ما ذكره الذهبي عن مكانته في الحديث لأنّ السيرة النبويّة تعتمد على الحديث في نصوصها وأخبارها وأحداثها. كما أنّ الذهبي امتدح معرفته بالسيرة النبويّة فقال: (ومهر في معرفة الأيّام النبويّة)[130]. كما ذكر عنه في موضع آخر أنّه كان له معرفة السير والرجال[131]، وهو وصف دقيق يُظهر أنّ ابن سيّد النّاس كان مختصّاً في السيرة ورجال الحديث فقد نسب له السيرة وجعلها من الامتيازات الّتي حظي بها في حياته.

ولا ريب أنّ مثل هذه الأوصاف، من عالم بمكانة الذهبي، لا يمكن أن تكون إلّا في عالم بلغ شأواً عظيماً في علمي الحديث والسيرة.

مآخذه عليه:

وقد كانت للذهبي مآخذ مبهمة على ابن سيّد النّاس فلم يوضّحها أو يشرحها وإنّما اكتفى بالتعريض لها، وهي زلّات ثابتة عليه ولكنّه تحاشاها بسبب مكانته الفريدة والمتميزة في الحديث والسيرة بالإضافة إلى صحّة عقيدته الّتي أشار لها الباحث أعلاه، وقبل التطرّق لنقاش هذه المآخذ يودّ الباحث أنّ يشير إلى أنّ الصفدي، والإمام ابن كثير، وغيرهما قد ساروا على نهج الذهبي في عدم ذكر هذه المآخذ على ابن سيّد النّاس، فقد قال الصفدي

[127] الذهبي: المصدر السابق، 267/3؛ ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، 438/7.
[128] الذهبي: المصدر السابق، 306/3؛ ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، 540/7.
[129] الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 396.
[130] الذهبي: المصدر السابق، ص 396.
[131] الذهبي: العبر في خبر من غبر، 99/4.

عنه: (وكان عنده لعب)[132]، وقال عنه: (كان فيه لعب)[133]، وقال عنه ابن كثير: (ويُذكر عنه شؤون أُخر يتولّاه الله فيها)[134].وقد لاحظ الباحث أنّ الذهبي قد وصفه بالمسكين في سياق التعريف به دون أن يبيّن سبباً لهذا الوصف، فقد قال عنه: (والله تعالى يغفر لنا وله المسكين)[135]، ويبدو أنّه قد وصفه بالمسكين من باب الإشفاق عليه من حاله الّذي مات عليه والّتي ذكرها في معجمه المختصّ بالمحدّثين فقال عنه: (عليه مآخذ في دينه وهديه، والله يصلحه وإيّاي)[136]، ولم يذكر هذه المآخذ ولكن ابن حجر نقل عن الذهبي قولاً فيه توضيح أكثر تُستشفّ منه هذه المآخذ وهي مباشرة الكتبة، فقد قال: (ولو أكبّ على العلم كما ينبغي لشدّت إليه الرحال ولكنّه كان يتلهّى عن ذلك بمباشرة الكتبة)[137]، ومع أنّه لم يوضّح ما المقصود بمباشرة الكتبة ولكنّه حتماً يقصد الجانب السلبي في ذلك. وقد بيّن ذلك الكمال الأدفوي، المتوفّى سنة 748 هـ، صريحاً فقال فيما نقله عنه ابن العماد الحنبلي: (وخالط أهل السفه وشُرّاب المدام)[138]، ولا شكّ أنّ ما ذكره الكمال الأدفوي هو أمر معيب في حقّ من يقوم به فما بالك بعالم كبير في الحديث والسيرة كابن سيّد النّاس، ولكن لا بدّ لنا من الوقوف عند عبارة الكمالالأدفوي وتملّيها برويّة فقد ذكر أنّه قد خالط ولم يذكر أنّه قد شرب والفرق كبير بين المخالطة والشرب مع أنّ المخالطة قد تفضي إلى الشرب ولكنّه لم يذكر الشرب، ولا ريب أنّه لو حصل من ابن سيّد النّاس شرب الخمر، وهي من الكبائر، لما سكت الأئمّة الكبار كالذهبي أو ابن كثير دون توضيح ذلك.

[132]الصفدي: المصدر السابق، 208/5.
[133]الصفدي: الوافي بالوفيّات، 221/1.
[134]ابن كثير: المصدر السابق، 262/16.
[135]الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص 396.
[136]الذهبي: المعجم المختصّ بالمحدّثين، ص 261.
[137]ابن حجر: المصدر السابق، 209/4.
[138]ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، 190/8.

خاتمة

من خلال عرض الباحث لآراء وكتابات الذهبي في ابن سيّد النّاس نجد أنّه قد عرض لحياة ابن سيّد النّاس الخاصّةوعلميّتهباختصار ولم يتوسّع كثيراً كما فعل الصفدي وابن حجر وابن العماد الحنبلي وغيرهم في ذلك. ومع شحاحة المعلومات عن ابن سيّد النّاس عند الذهبيفيما يتعلّق بحياته الخاصّة إلّا أنّه اعطانا معلومات لا بأس بها عن هذا الجانب وتوسّع كثيراً في نسبه وعلى النقيض من ذلك لم يتحدّث حديثاً دقيقاً عن مناصبه وأهمل بعضها، كما عرض بشكل مختصر لخطّه وأثنى عليه، وبالمقابل ذكر أنّ الخطّ منسوب إليه، ونسبة الخطّ تدلّ على عدم تأكّد من صحّة جمال خطّه، ويبدو للباحث أنّ هذه العبارة عفويّة ولم يقصد بها الذهبي الشكّ في نسبة جمال الخطّ إليه لأنّ جمال خطّه ثابت وذكره كلّ من تصدّى للكتابة عنه.

أمّا عن علميّة ابن سيّد النّاس وتكوينه العلمي فقد عرض لها بشكل مقبول فقد ذكر فيما نقله غيره عنه أنّ شيوخ ابن سيّد النّاس قد بلغوا الألف، وهو رقم ربّما قصد به كثرة شيوخ ابن سيّد النّاس لأنّ فيما رجع له الباحث ممّن كتب عن ابن سيّد النّاس لم يذكر عدداً كبيراً عن شيوخه وإنّما أوردوا الأهمّ، أمّا الأقلّ أهميّة فلم تذكر أسماؤهم ولم يصلنا خبرهم، وقد ذكر الذهبي بعضاً من شيوخه بأسمائهم دون أن يتوسّع عنهم، وربّما ترك ذلك لشهرة هؤلاء الشيوخ فهم كانوا الأشهر في وقته، كما عرض لمؤلّفاته الأشهر وأهمل البقيّة منها، كما أثنى على شعره وخلص إلى أنّ غالب شعره كان في المدائح النبويّة، كما عرض لمكانته في اللّغة والأدب وامتدحه كثيراً في ذلك، كما عرض لصفاته العلميّة الّتي اكتسبها وأشار إلى أنّها كانت جمّة بمعنى أنّه لم يوفّيه حقّه في ذكر صفاته فهي أكثر ممّا تعدّ، كما أهمل ذكر طلّابه ولم يذكر أحداً منهم مع كثرتهم.

وختم الباحث الموضوع بإخضاع ابن سيّد النّاس لميزان الذهبي والّذي يُستشفّ من كتابته عنه، وأوّل ذلك هو لقاء الذهبي بابن سيّد النّاس، وسماعهما معاً، وإجازته له واضطراب رواية الذهبي في السماع عنه، ثمّ عرض الباحث لصحّة عقيدة ابن سيّد النّاس من منظار الذهبي وثنائه عليه فيها وهو الأمر الّذي لم يشكّك فيه أحد من السلف كابن كثير أو الصفدي أو ابن حجر وغيرهم، ويبدو أنّ إيراده للكلام عن معتقده هو بسبب ما ذكره من مآخذ عليه ولمّح بها دون أن يذكر ما هذه المآخذ؟ والّتي أحجم عن ذكرها ربّما بسبب ذلك. كما عرض لمكانة ابن سيّد النّاس في الحديث وأظهر شغفه فيه وأصدر حكمه عليه كرجل حديث أنّه صدوق، كما امتدح معرفته بالسيرة وأثنى على ذلك.

المصادر

- الجزري، شمس الدين محمّد بن إبراهيم القرشي، ت 738 هـ: تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيّات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري، تحقيق: أ.د. عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصريّة بيروت، الطبعة الأولى.
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، ت 852 هـ: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، 1414 هـ.
- الذهبي، شمس الدين محمّد بن أحمد: الإعلام بوفيّات الأعلام، تحقيق: مصطفى بن علي عوض وربيع أبو بكر عبد الباقي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، 1413 هـ.
- الذهبي، شمس الدين محمّد بن احمد، ت 748 هـ: دول الإسلام، تحقيق: حسن مروة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1999 م.
- الذهبي، شمس الدين محمّد بن أحمد، ت 748 هـ: ذيل تاريخ الإسلام، اعتنى به: مازن بن سالم باوزير، دار المغني للنشر والتوزيع.
- الذهبي، شمس الدين محمّد بن احمد، ت 748 هـ: المعجم المختص بالمحدّثين، تحقيق: د. محمّد الحبيب الهيلة، مكتبة الصدّيق، الطائف، الطبعة الأولى، 1408 هـ، ص 261؛ الذهبي، شمس الدين محمّد بن احمد، ت 748 هـ: تذكرة الحفّاظ، دار الكتب العلميّة، بيروت.
- السبكي، تاج الدين عبد الوهّاب بن علي بن عبد الكافي، ت 771 هـ: طبقات الشافعيّة الكبرى، تحقيق: محمود محمّد الطناحي وعبد الفتّاح محمّد الحلو، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة.
- ابن سيّد النّاس، أبو الفتح محمّد بن محمّد اليعمري، ت 734 هـ: الأجوبة، تحقيق: د. محمّد الراوندي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، المغرب، 1410 هـ.
- السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، ت 911 هـ: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، 1967م.

- السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت 911 هـ: طبقات الحفّاظ، راجعه: لجنة من العلماء، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، 1403 هـ.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت 764: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: د. علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1418 هـ.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت 764 هـ: الوافي بالوفيّات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي للطبع والنشر والتوزيع.
- ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين عبد الحيّ بن أحمد الدمشقي، ت 1089 هـ: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى.
- الفاسي، محمّد بن أحمد الحسني المكّي، ت 832 هـ: ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، تحقيق: محمّد صالح المراد، معهد البحوث العلميّة وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكّة المكرّمة.
- الكتبي، محمّد بن شاكر، ت 764 هـ: فوات الوفيّات والذيل عليها، تحقيق: د. إحسان عبّاس، دار صادر
- ، بيروت.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزيّة، تحقيق: د. محمّد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1998 م.